المحاضرة السادسة:

جماليات الأدب الصوفي (اللغة الصوفية):

تمهيد:

لقد كان للصدمات العنيفة التي تعرض لها كبار المتصوف من أمثال (أبي منصور الحلاج) (السهروردي)، وغيرهما، دور في تطور هذه اللغة خاصة ودور في نضج الحركة الصوفية بوجه.عام ولعلها إحدى الأسباب التي دفعت الصوفية إلى توظيف بعض أغراض الشعر العربي المتعارف عليها ،كالغزل عند الحديث عن الحب الإلهي، هرباً من ذلك الضغط و الحصار الذي سلّطه عليه الحكّام بإيعاز من الفقهاء، الخصم العنيد للصوفي. لذا فقد مرت بمراحل جعلتها ترتقي وتتطور.

إنّ الظلم والتعسف الذي أحاط بالمتصوفة خدم الحركة الصوفية، حيث " مكّنها من هيكلة نفسها، وسط هذا المجتمع الرافض معظمه لأفكارها، حتى يتسنى لها الاستمرار، ولقد تجلّى تطور الحركة الصوفية،من خلال اللغة، التي انتقلت من لغة العبارة المعلومة لدى العامة، والمرفوضة منهم لسوء الفهم والتقدير، إلى لغة الإشارة، المبهمة لدى الآخر، والمعلومة عند الصوفي، هذه اللغة التي لعب الرمز فيها الدور الرئيس، ووصل بها إلى حد الانبهام والغموض لدى الآخر، فاللغة الصوفية إذن لغة رامزة، ولعل ذلك الغموض الذي يحيط بها مرده- حسب بعض الدارسين- إلى ذلك الحضر الذي فُرض عليها، وإلى ألوان العذاب الذي سلط على أقطابها ومريديها، فاختاروا الهروب والاختفاء وراء تلك اللغة، حتى يدرأ الصوفيُّ عن نفسه العذاب، وينأى بها عن العيون المتربصة . إلاّ أنّ تلك الكثافة اللّغوية وذلك التلاعب الجميل بالألفاظ، وذلك التراكم الكمي للرمز"، يسمو بها من مجرد الاختباء وراء الحرف هربا من الظلم وإساءة الفهم، ويجعل منها " تجربة مفارقة تتأسس على عنصرين أساسيين: عنصر جمالي وآخر تراجيدي" فميزة وسمة اللّغة الصوفية، - على عكس ما يعتقده العامة لا تقتصر " في كونها وليدة ظروف نفسية أو اجتماعية فقط، بل تأخذ أبعادا أخرى، تقوم على عنصرين أساسيين، عنصر جمالي، وآخر تراجيدي، هذا الأخير يفسره كون الصوفي "يحس بأنّ وجوده مؤسس على الانفصام والاغتراب عن أصوله البدائية، التي هي الألوهية (أصل الروح)، والطّبيعية الترابية (أصل الجسد)،هذا الإحساس بالانفصام، يفسر من جهة أخرى معاناة الصوفي والنزعة البكائية التي تطغى على الكثير من نصوصه الشعرية"، هذا الانفصام الذي يشعر به الصوفي، بين الألوهية الطّبيعية، والاغتراب عن الأصل، شكّل عنده تلك النزعة البكائية، حيث جعلته يتخذ موقفا تراجيديا من الوجود، وعلى النقيض، فإنّ الحس الجمالي يعطي الصوفي الرغبة في الحياة، والاستمرار و الخلود.

مراحل تطور اللغة الصوفية وجمالياتها:

ولقد مرت اللغة الصوفية على حسب رأي الباحث حميدي خميسي حول اللغة الصوفية - **بثلاث مراحل:**

المرحلة الأولى:

" كانت فيها اللغة الصوفية بسيطة بساطة تجربة الصوفي نفسه،تلك التجربة التي كان يساعده القرآن على تبلورها، من خلال التلاوة، فالتجربة الصوفية وليدة التفكر في القرآن، والإكثار من تلاوته، واستعادة بعض ألفاظه، كالمحبة والقرب والشوق، وهنا يمكن القول، أنّ التصوف نشأ نشأةً

إسلامية خالصة"، فلغة التصوف في بدايتها كانت مرتبطة بالتجربة الصوفية والتي كانت بسيطة فانعكست على لغتها تلك البساطة، حيث كان القرآن والحديث أهم الأركان التي تستمد التجربة الصوفية طاقتها وقوتها وجمال أسلوبها البسيط.

أما المرحلة الثّانية:

فقد بلغت فيها " التجربة الصوفية أشدها، ويصبح لها كيانها الخاص، ولغتها الخاصة، بما فيها من عبارات وإشارات و رموز، وفي هذه المرحلة أصبحت التجربة خلاّقة، تأتي بمعطيات جديدة لم تكن في القرآن، وتساعد الصوفي على النظر إلى كلّ شيء نظرة تأويلية، أصيلة" ، وفي هذه المرحلة تصبح التجربة الصوفية أكثر استقلالية، ويصير لها كيانها الخاص كما يقول الباحث حميدي خميسي، بعدما كانت مرتبطة بالقرآن الكريم، تستمد منه بعض ألفاظه وتكثر من تلاوته والتدبر فيه، " لتصير تجربته خلاّقة تأتي بأشياء جديدة ،غير تلك الموجودة في القرآن .بهذا التقدم الذي شهدته التجربة الصوفية،تطورت معها لغة التصوف،وصارت تعتمد تأويل الأشياء، وبالتالي اختلفت نظرة الصوفي إلى القرآن،حيث صارت تعتمد الاستبطان والتأويل، وخير من مثّل هذه المرحلة من المتصوفة،(الحلاّج) و(ابن عطاء.) "

أما المرحلة الثّالثة:

فقد بلغت" الرؤية الصوفية أقصاها، وتبدأ مع منتصف القرن الرابع، ويمثّلها أحسن تمثيل(النفّري)، وينتقل الصوفي من التفكّر في القرآن، إلى مخاطبة الله...ويمتزج في هذه اللّغة الرمز بالإشارة، ويكسوها الغموض والإبهام، وتصبح لغة مستغلقةً حتى على ذهن الخواص،لأنّ الصوفي وصل من خلالها إلى مرحلَة ما لا ينقَال " إذن في هذه المرحلة الأخيرة، " تصل التجربة الصوفية إلى قمتها وذروتها،حيث يتجاوز الصوفيّ فيها مرحلة التدبر، والتفكّر في القرآن، إلى مرحلة مخاطبة الله،

وفي هذا المستوى يختلط في اللغة الصوفية الرمز بالإشارة ، وتحاط هالة من الغموض والانغلاق، مما يصعب على المُتصوفة أنفسهم فك رموزها "، لأنّ الصوفي وصل إلى مرحلة اللاّقول -إن صح التعبير- مرحلة الصمت " التي تحيل الوجود إلى كلام أبدي غير منطوق، وليس المقصود من الصمت،هو الصمت عن الكلام، وإنما هو صمت الفكر،ذلك الصمت المبدع الذي يقبر فيه العقل ،كما يقول (النفّري)،وتحلّ معه السكينة، ويعيش المتصوف لحظة الخلود الأبدية، التي تتلاشى معها كينونة الزمن".

ما نستنتجه ونلاحظه إذن أنّ اللّغة الصوفية ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة الصوفية، فاللغة تزداد كثافةً وعمقاً، وتعقيدا وغموضا،كلّما تطورت التجربة الصوفية، وأخذت ترتقي من مقامات إلى أحوال علِيةٍ، يزداد فيها وجد الصوفي، وبالتالي يحتاج إلى لغة جديدة، تناسب تلك الحال، وتلك الرؤية، التي كثيرا ما يصعب التعبير عنها، فتأتي اللغة منهمة، بل تصير اللغة لديه "مخاضا عسيرا ،يتجاوز بها حدود التواصل،إلى التعبير عن غير المألوف، واللاّمحدود والمطلق، وهو يسعى إلى تفجيرها و الخروج بها عن المواضعات الاجتماعية،لتصبح لغة وجودية،تحمل في حروفها ومعانيها أسرار الكون والخليقة، ومن خلال هذه النظرة إلى اللغة، يصبح العالم كلّه نوعا من الكتابة أو اللغة،أو مصحفا كبيرا،على حد تعبير (ابن عربي) نفسه، إلى جانب المصحف الصغير، الذي هو القرآن الكريم" ، فاللغة الصوفية في هذا المرحلة تعبير عن المسكوت عنه، عن الكون وغيبياته وأسراره، الذي لا تسعه هذه اللّغة النسبية المتواضع عليها،" فكانوا مضطرين لأن ينشقّوا عن محدودية العبارة الثّابتة، فاصطلحوا على لغة دالّة على التجربة الروحية، التي لا تقاس بالحدود والأوصاف"، فكانت لغة الإشارة، هي اللغة التي عبرت بصدق عن الرؤيا الصوفية، وقالت ما لم تستطع العبارة قوله، فتميزت لغة الإشارة، عن لغة العبارة، بكثير من المميزات والخصائص، فتعددت وظائفها، ولم تعد "مجرد وظيفة إبلاغية أو استشهادية أو انطباعية، وإنما هي وظيفة فكرية نفسية تأثّرية إفهامية، ذات أبعاد محددة عن أفكار صاحبها ومشاعره الخاصة "، فتعدت اللغة الصوفية إذن مستوى الإبلاغ إلى مستويات أخرى، فصارت ذات وظائف نفسية، وتأثّرية وإفهامية، تعبر عن حالات الصوفي الخاصة، لذلك " لا يستطيع المتلقّي أو القارئ أن يتماهى، مع لغة الصوفي إذا لم يندمج بمعارفه و معارجه، ويضبط التقاطعات الرمزية لتلك اللغة... وهذا لا يمثّل عجزا صريحا في الإدراك، وإنما يجسد وعيا فاعلا لكيفية فهم اللّغة الخاصة، التي يستعملها الصوفي في معارجه العقلية، ومقاماته الروحية،والمراتب العلية القدسية[1] فيجب على المتلقّي، كي

يصل لفك شفرات تلك اللّغة، أن يندمج بمعارفه مع معارف الصوفية،حتى يتمكّن من إدراك تلك اللغة الخاصة.

حيث تكمن أهمية اللغة الصوفية في " التعبير عن الأذواق والمكاشفات وغير ذلك من المغيبات التي تحتاج إلى براعة وقدرة كبيرة في استخدام ما يحمل تلك المعاني المطلقة عبر أديم لغة مغايرة متنّصلة من كّل رسم مألوف، يتداخل فيها الجانب الوجودي بالمعرفي "، ذلك أّن المتصوفة في عروجهم الّروحي واقعون بين انفتاح الأنا على المطلق وانغلاق اللغة أمام استيعاب ذلك المطلق، فهم سائرون من مشاهدة الصور والأمثال " إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعّبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه"، ولعل هذا ما حدث مع الحلاج حين باح بمقام قربه من رّبه تعالى بلغة ظّل صراعه معها مريرا فظّن غيره جهلا أنه يدعو إلى الحلول من خلالها، فكلفه ذلك مصرعه، في حين آثر بعض المتصوفة الصّمت والكتم صونا لأسرارهم ومعارفهم، ومن هذا القبيل قول أحمد بن مصطفى العلاوي:

أردتـــم توحيـــدا و منـــا طلبـــتم   **فلـو قلنـا مـا التوحيـد عّنـا فـررتم**

و لكّـــن فـي الفـؤاد أمـــر محّجـــب   **فــلا يــرى شــيء منـــه إلا مــا رمــتم**

تـــالله لهـــو الحــق والقصــد والمنـى   **فعنـــه غفلـــتم وفـي الغفلـــة دمــتم**

فتوحيـــده عـــين العيـــون قاطبـــة   **فمـــن عـــرف التوحيـد للسّـــر يكـــتم**

تلك إذن ميزات جمالية تخص اللغة العربية، شعرها ونثرها، والأدب الصوفي،(شعره ونثره) أدب قيل بتلك اللغة،فكيف لا يتميز بميزاتها،ويختص بخصائصها ؟

والمطّلع على الشعر الصوفي، المدقّق في لغته وأساليبه لاشك يجد أنّ " لغة التصوف في جماليتها المميز لها، تخلق وحدةً فنية، ومن ثمَّ شعورية، فكرية ترتفع بالمشاعر، وهي تعبر عن تجربة عرفانية فريدة، تكشف الدلالة بوعي مرهف وحس وثّاب، قائمة على قصدية منفتحة على تصورٍ شديدِ الخصوصية، وكذلك هي لغة المتصوفة التي اخترعوها، فهي على رقّتها، وسهولتها وتنوعِها، ذات دلالة اشتقاقية خاصة " ، فرغم تلك الخصوصية التي تصاحب لغة التصوف، " إلاّ أننا نجد فيها وهي تعبر عن تلك التجربة العرفانية المتميزة، من الرقّة ورهافة الحس والسهولة والتنوع، ما يحرك الخيال ويهز المشاعر ويرتفع ويرتقي بها إلى أُفُق غير الأفق الذي يحملنا إليه خيال الشاعر العادي، إنما هو أفق لَدني، قدسي طاهر".

إنّ جمالية لغة التصوف، ليست جمالية عادية فإذا " ظن المُتلقّي أنه قادر على إدراك تلك الجمالية، في إطار التقابل بين لغة التصوف وما انطوت عليه من دلائل معجمية، أو من أساليب

موروثَةٍ في البلاغة، أو ما اختزنه من ثقافة وتجربةٍ قديمةٍ، أو حديثة، فإنه لن يجني من النص الصوفي إلاّ السراب" ، كلّ ذلك لا يكفي لإدراك التجربة الجمالية في النص الصوفي، بل يجب على متلقّيه، أو دارسه أن يتزيا بزيه، بمعنى يجب عليه مثلا " أن يقوم بعملية رصدٍ لِلُغةِ المتصوفةِ وكناياتهم، واستعاراتهم ورموزهم، وأن يتفاعل فيها، محاوِلاً تمثّل التجربة، ومن ثمّ فهم ملابساتها ... ليقبض على طبيعتها وجماليتها " ، أي أن يقترب من لغة التصوف، ويحس بها " حتى يستطيع سبر غورها وفك شفراتها و رموزها، وتفَهمِ كناياتِها واستِعاراتِها، ويعيش التجربة التي عاشها الصوفي أو يتمثّلها، حينها يمكن القول أننا قبضنا على جماليتِها "، فلغة الإشارة - كما قال عنها ابن عربي:

عِلْـــم الإِشـــارةِ تقْرِيـــب وإبعـــاد وسيـــرها فِيـــك تأْويـــب و إِســـنَاد

فهي لغة تقترب حتى تحس أنك امتلكت زمامها، ثم تسرع فتهرب منك فلا تستطيع لها فهما ولا تدبيرا وتأويلا، فتظهر غريبة مستغلقة، هذه هي طبيعة اللغة الصوفية وجمالياتها.

المصادر والمراجع: (الإحالات):